الياس فياض

شاعرُ الاحساس والخيال ، شاعرُ الكآبة والدموع ، شاعر الاخلاق والضمير ، ذلك هو الياس فياض . كان في كل عرقٍ من اعرائه فلذة من القلب ، وفي كل خلجة من خلجاته نزوة من الروح . لقد أنشد الطبيعة بلسان شاعر ، وأنشد الحياة بلسان شاعر ، وأنشد البؤس بلسان شاعر ، فكان في جميع اناشيده شاعراً متفوقاً نبيلاً . إنه لمن تلك الفئة المجنحة التي يحق لها أن تقول : « حلقت » . ومن تلك الفئة الصداحة التي يحق لها أن تقول : « أنشدت » . على أنه ماحلّق في سماء إلا وخامت عليه نجومها بريقاً من اليأس :

وأرى نورك الضئيل كدمع ... سائل من محاجر بيضاء
انور كئيبةٌ أم جراحٌ ... أنت في اللانهاية السوداء

وما أنشد أغنية إلا ووقعها على أوتار مدماة حمراء هي تأبين قلبه الدامي :

وهناك عين مذ رأتها عينه ... غزلت له باللحظ خيط شقائه

لقد عرف أن يمزج روحه بأرواح خلائق الله جميعها فأعطى الشجرة والزهرة والروض والنيل روحاً حساساً وقلباً نابضاً ، لقد عرف ان يخرج من الظلم عظة ومن الشقاء حكمة ، لقد عرف ان يجرد نفسه من المادة ويرتفع بخياله وقلبه الى العاطفة الشريفة التي هي أساس الشاعرية في الانسان وعنصر الألوهة في البشر ، لقد عرف ان يحافظ على تراث الاخلاق في عصر اشتبه به الخُلُق حتى في صدور شعرائه وأن ينشد الفضيلة المقدسة في زمن خرست به السنتها حتى في افواه بلابله ، لقد عرف ان يكون شاعراً انسانيًّا في عهد طست به الاراجيف والظلماتُ والجهل لتسدَّ منافذ النور :

أإخواننا لا تجعلوا الدينَ فاصلاً ... فما الدين إلاَّ رابطُ الارض بالسماء

قد يكون نقيدنا القالي اصدق شعراء لبنان حسًّا وأخلصهم عاطفة وإن يكن بقيَ دون مرتبة البعض سموًّا في الخيال والصورة ، وبراعة في اللفظة والموسيقى ، على انه لم ينحط عن مستوى الخيال والايقاع في قصيدته « ليالي النيل » سماع شجيّ وصورة ملونة يسيران به الى ضفة الشاعرية الساحرة ومن ضفة الشاعرية الساحرة الى جوّ الشاعرية الحقة

وللتخيل منظر مهيب ترتاع من جماله القلوب
فوق الضفاف ظلها رهيب صفا بصف زانها الترتيب
من كل جبار عظيم القدر
تحميها مردة طوالا تحت مظلات زهت جمالا
في الليل جاءت تبتغي اغتسالا سحرها الليل فلن تزالا
واقفة هنا بفعل السحر

لا نجد في شعره جرثومة الرياء أو المحاباة لانه لم يخرج يوماً من هيكله ولم يعرف ينبوعاً لشاعريته غير قلبه وخياله! ولو قدر له أن يعبر عن جميع افكاره لمهر الادب بآيات يعجز عنها معظم الشعراء في زمنه، ولقد اعترف بذلك إذ قال: «هي الزهر مما في الفؤاد...» لقد كانت مخيلته متحفاً مليئاً بالصور وكان قلبه بحراً طافحاً بالعاطفة. إلا ان تلك الصور وهذه العاطفة لم تكن تخرج من مخيلته وقلبه إلا لتتمثل على شفتيه، ولكن التمثل هذا يكفي أن يدرجه في عداد الشعراء الخالدين

وفي شاعرية فياض عنصر تمتاز به عن جميع شعراء لبنان على الاطلاق وهو السذاجة في السمو: لقد بقي الشاعر الى آخر ايامه محتفظاً بصبغة الطفولة في اخلاقه، ولقد سالت هذه الصبغة على شعره حاملة اليه اعطر ما في القلب البشري من الحب وأجمل ما فيه من الاخلاص

***

استهل الشاعر ديوانه المطبوع في عام ١٩١٨ بقصيدة مترجمة عن الشاعر الفرنسي «ميلقوا» عنوانها «سقوط الاوراق». يزعم البعض ان الترجمة العربية جاءت أجمل من الاصل الفرنسي وهذا غلوٌّ في الزعم إذ إن «ميلقوا» استطاع في قصيدته الصغيرة «La Chute des feuilles» ان يرتفع الى مستوى كبار شعراء فرنسا لان القدر أبى على الشاعر إلا ان يغذي قصيدته بصُبابة دمه وقلبه وأن يمهد له الشاعرية الخالدة على الم مسالك الحياة، على المرض القتال والبؤس الشديد والحب المظلوم: ثلاثة عناصر تلمسها بيدك وروحك في قصيدته الوحيدة «La Chute des feuilles» ومن يقدّر له ان يصرخ في حياته صرخة الم تخرج معها فلذةٌ قلبه دفعة واحدة فتتناقل الاجيال تلك الصرخة الدامية الجميلة ويسجلها الخلود في سفر الشاعرية، المتفوقة لا يقدّر لرجل آخر، مهما تكن مرتبته وإحساسه، ان يقلد تلك الصرخة من غير أن يضعف من نبراتها. كذلك لو اقدم شاعر من الشعراء ان يترجم الى لغته قصيدة «ليالي الليل» مثلاً لما

استطاع ان يجيد في ترجمته اكثر مما اجاد الياس فياض في ترجمته « سقوط الاوراق ». على ان فقيد الادب كان يوشك ان يتفرّد بالصدق في ترجماته لانه لم يكن يقدم على ترجمة قصيدة لشاعر الا بعد ان يتأثر بروحه ويتغلغل في صميمها ، فاذا جاءك غيره بخيال من الشاعر المترجم يخيّل اليك هو بفلذة من قلبه

***

كان الشاعر يرمي الى التجديد في النظم فلقد حاول في مطلع حياته الشعرية ان يطلق القافية من قيدها الموروث فنظم قصيدة لم يجعل ابياتها مستقلة بنفسها بل ادمج السابق منها باللاحق كما فعل ڤيكتور هيغو في روايته « هرناني » ولم يقصر طريقته هذه على قصيدة واحدة بل جاوزها الى روايته « عبرة الابكار »

. . . . . إن الفتى طبعاً يميل
الى الجديد . والملا من امرىء القيس الى
ذا العصر لم يجددوا نظماً ، ولكن قلدوا
مَن قبلهم . . . .

إن تسلل الشاعر الى مداخل اللغة الفرنسية وتعمقه في درس آدابها غرسا في نفسه النزعة الى خلق نظم جديدة للشعر العربي تكون ادعى لمماشاة الفكرة العصرية وقد يكون اول من فكر في هذه الطريقة ، الا ان مشروعاً خطراً كهذا في بلاد تتمسك بالتقاليد ، يحتاج الى اكثر من مجهود رجل واحد لينفذ

هجر الشاعر عروس شعره يوم كان الادب في حاجة ماسّة اليه ، وقبل ان ينشد اجمل قصائده على مسامع الخلود ، الا انه سيعيش في قلوب الشباب ما دام هناك شباب وما دام في الصدور قلوب تخفق وتحس !

سيعيش الشاعر بقصيدته الخالدة « ليالي الليل » كما عاش موسه « بلياليه » ولارتين بـ« بحيرته » « وخلوده » وكما عاش عروة « بعفرائه » وقيس « بليلاه » !

والآن اسمح لي ، ايها الشاعر ، ان اضع على قدمي ضريحك زهرة ذابلة ، رمز كآبتك ويأسك ، وان أذرف عليه دمعة طاهرة ، رمز عاطفتك وأخلاقك

بيروت — الياس ابو شبكه
من عصبة العشرة